وأمَّا الآية الثالثة؛ فـ(أم) بمعنى (بل)، والهمزة للاستفهام، فهي (أم) المنقطعة، والاستفهام انكاريٌّ يتضمَّن معنى التوبيخ، والمعنى: بل أيظنُّ هؤلاء في تخفِّيهِم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؛ بلى نسمع ذلك، وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

وأمَّا الآية الرابعة؛ فهي خطابٌ من الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

وأمَّا الآية الخامسة؛ فقد نزلت في شأن أبي جهل لعنه الله حين نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة عند البيت، فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤)﴾[العلق: ٩-١٤] إلخ السورة[1].

[إثبات صفتي: المكر، والكيد]

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣)﴾[الرعد: ١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾ [الطارق: ١٥]).

= جرحًا ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (لا يعرف)، وقال الحافظ: مجهول.

(١) رواه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ...﴾ إلخ؛ تضمَّنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد، وهما من صفات الفعل الاختيارية.

ولكن لا ينبغي أن يشتقَّ له من هاتين الصفتين اسم، فيقال: ماكر، وكائد؛ بل يوقف عند ما ورد به النص من أنَّه خير الماكرين، وأنَّه يكيد لأعدائه الكافرين.

أمَّا قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ فمعناه: شديد الأخذ بالعقوبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢]، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال ابن عباس: ((معناه: شديد الحَوْل))[١].

وقال مجاهد: ((شديد القوَّة))[٢]. والأقوال متقاربة.

وأمَّا قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ فمعناه: أنفذهم وأسرعهم مكرًا.

وقد فسَّر بعض السَّلف مكر الله بعباده بأنَّه استدراجهم بالنِّعم من حيث لا يعلمون، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة؛ وفي الحديث: ((إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا ما يحبُّ وهو مقيمٌ على معصيته؛ فاعلم أنما ذلك منه استدراج))[٣].

---

(١) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٦/٣٩٦).

(٢) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٦/٣٩٦).

(٣) رواه أحمد في ((المسند)) (٤/١٤٥)، والطبري في تفسيره (١١/٣٦١)، والطبراني (٩١٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٥٤٠). من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. =

وقد نزلت هذه الآية في شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله، فدخل بيتًا فيه كوَّةٌ، وقد أيَّده الله بجبريل عليه السلام، فرفعه إلى السماء من الكوَّة، فدخل عليه يهوذا؛ ليدلَّهم عليه فيقتلوه، فألقى الله شبهَ عيسى على ذلك الخائن، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى؛ خرج إليهم وهو يقول: ما في البيت أحدٌ. فقتلوه وهم يرون أنَّه عيسى، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾(١).

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا... ﴾ إلخ؛ فهي في شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي: لَيَقْتُلُنَّه بياتًا هو وأهله، ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾، فكانَ عاقبةُ هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمَّرهم وقومهم أجمعين(٢).

(وَقَوْلُهُ: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء:١٤٩]، ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور:٢٢]).

= والحديث حسَّن إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٢/٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤١٣).

(١) ذكر هذا المعنى ابن كثير في «التفسير» (٣٧/٢) دون أن يعزوه لأحد، وذكره ابن جرير بسنده إلى السُّدي (٤٥٤/٦-شاكر)، وعزاه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣٩٥/١) لابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٠٧/٦).

[إثبات اسم العَفُو]
قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا ...﴾ إلخ؛ هذه الآيات تضمَّنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والإكرام.

[معنى العفو]
فالعَفُوُّ الذي هو اسمه تعالى؛ معناه: المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا[١]؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

ولما كان أكمل العفو هو ما كان عن قدرة تامَّة على الانتقام والمؤاخذة؛ جاء هذان الاسمان الكريمان: العَفُوُّ والقدير مقترنين في هذه الآية وفي غيرها.

وأمَّا القدرة؛ فهي الصفة التي تتعلَّق بالممكنات إيجادًا وإعدامًا، فكلُّ ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته؛ كما في الحديث: ((ما شاء الله كانَ وما لم يشأ لم يكن))[٢].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ...﴾ الآية؛ فقد نزلت في شأن أبي بكر رضي الله عنه حين حلف لا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان ممَّن خاضوا في الإفك، وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر، فلما نزلت هذه

(١) (تقييد عفو الله عنهم بالتوبة والإنابة فيه نظر فإنَّ عفو الله سبحانه قد يكون عن توبة وإنابة من العبد، وقد يكون مجرد فضل وإحسان من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥] وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]). (ابن عثيمين)
(٢) سبق تخريجه (ص: ١٢٦).

الآية قال أبو بكر: ((والله إنِّي لأحب أن يغفر الله لي))، ووصل مسطحًا[1].

[إثبات صفة العزة]

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص:٨٢]).

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فقد [نزلت في شأن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول رئيس المنافقين، وكان في بعض الغزوات قد أقسم ليخرجنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه من المدينة، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾؛ يقصد بالأعزِّ - قبَّحه الله - نفسه وأصحابه، ويقصد بالأذل رسول الله ومن معه من المؤمنين، فردَّ الله عزَّ وجلَّ عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾][2].

والعزَّة صفةٌ أثبتها الله عزَّ وجلَّ لنفسه؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم:٤] وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

وأقسم بها سبحانه؛ كما في حديث الشفاعة: ((وعزَّتي وكِبْريائي وعظمتي؛ لأخرجنَّ منها مَن قال: لا إله إلا الله))[3].

---

(١) جزء من حديث حادثة الإفك، وقد رواه البخاري (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أورد سبب النزول: البخاري (٤٩٠٤)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) بلفظ مقارب.

وأخبر عن إبليس أنَّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وفي ((صحيح البخاري)) وغيره عن أبي هريرة: ((بينما أيُّوب عليه السلام يغتسل عريانًا خرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربُّه: يا أيُّوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى؛ وعزَّتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك))[١].

وقد جاء في حديث الدعاء الذي علَّمه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن كان به وجع: ((أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شرِّ ما أجد وأُحاذر))[٢].

[معنى العزة] والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر؛ من عزَّ يعُزُّ - بضم العين في المضارع- يقال: عزَّه؛ إذا غلبه.

وتأتي بمعنى القوة والصلابة[٣]؛ من عزَّ يعَزُّ - بفتحها -، ومنه أرض عزاز؛ للصلبة الشديدة.

---

(١) رواه البخاري (١/٣٨٧).

(٢) رواه مسلم (١٤/٤٣٩) من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه. ولفظه: ((أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)).

(٣) (الحق أن الصلابة لا يمكن القول بثبوتها لله عزَّ وجلَّ ولا بنفيها عنه لعدم ورود ذلك، أما بقية المعاني التي ذكرها فيصح إثباتها لله ...، لكن قد يقول قائل: إن كلامه الأول على معاني العزة من حيث هي وبيان اشتقاقها ثمَّ إن الواجب إثبات ما يليق بالله من ذلك وهذا= = قول محتمل لولا قوله وهذه المعاني كلها ثابتة لله فإن التوكيد بكل ينفي احتمال إرادة البعض والله أعلم). (ابن عثيمين)

وتأتي بمعنى علوّ القدر والامتناع عن الأعداء؛ من:عزَّ يَعِزُّ -بكسرها-.

وهذه المعاني كلها ثابتة لله عزَّ وجلَّ.

(وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨])

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴿٧٠﴾.. ﴾ فإنَّه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته.

وقوله: ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ﴾؛ أي: صاحب الجلال والعظمة سبحانه، الذي لا شيء أجلَّ ولا أعظم منه.

و﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾: الذي يكرم(١) عما لا يليق به، وقيل: الذي يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة في الدنيا والآخرة. والله أعلم.

(وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم:٦٥]، ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة:٢٢]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ ﴾[البقرة:١٦٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء:١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [التغابن:١]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى

(١) أي: يتنزَّه؛ قال ابن منظور في «لسان العرب»: «تكرَّم عن الشيء وتكارم: تنزَّه».

نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ١-٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[المؤمنون: ٩١-٩٢] ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾، [النحل: ٧٤]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣])

[صفات السلوب] قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ...﴾ إلخ؛ تضمَّنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات السلوب، وهي نفي السمي والكفء والنِّد والولد والشريك والولي من ذلٍّ وحاجة؛ كما تضمَّنت بعض صفات الإثبات؛ من: الملك، والحمد، والقدرة والكبرياء، والتبارك.

[معنى السَّمي] أمَّا قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛ فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: ((قال أهل اللغة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛ أي: نظيرًا استحقَّ مثل اسمه، ويقال: مساميًا يساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ

سَمِيًّا ﴾؛ مثلًا أو شبيهًا))[١].

والاستفهام في الآية إنكاري، معناه النفي؛ أي: لا تعلم له سميًّا.

وأمَّا قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ ﴾؛ فالمراد بالكفء: المكافئ المساوي.

فهذه الآية تنفي عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه؛ لأنَّ ﴿أَحَدٌ﴾ وقع نكرة في سياق النفي، فيعم، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة الإخلاص كلها، فليرجع إليها.

[معنى الند] وأمَّا قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلخ. فالأنداد جمع نِدٍّ، ومعناه – كما قيل-: النظير المناوئ. ويقال: ليس لله ندٌّ ولا ضدٌّ، والمراد نفي ما يكافئه ويناوئه، ونفي ما يضاده وينافيه.

وجملة: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقعت حالًا من الواو في ﴿تَجْعَلُوا﴾، والمعنى: إذا كنتم تعلمون أنَّ الله هو وحده الذي خلقكم ورزقكم، وأنَّ هذه الآلهة التي جعلتموها له نظراء وأمثالًا وساويتموها به في استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ولا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا؛ فاتركوا عبادتها، وأفرِدوه سبحانه بالعبادة والتعظيم.

---

(١) انظر: ((الفتاوى)) (٣/٤). وأثر ابن عباس أورده ابن جرير في تفسير الآية بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد تقدَّم الكلام (ص: ١١٠) عن رواية علي عن ابن عباس رضي الله عنه. وانظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٥/٢٤٥).

وأمَّا قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ... ﴾ إلخ؛ فهو إخبارٌ من الله عن المشركين بأنَّهم يحبُّون آلهتهم كحبهم لله عزَّ وجلَّ؛ يعني: يجعلونها مساوية له في الحب. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ من حب المشركين لآلهتهم؛ لأنَّهم أخلصوا له الحب، وأفردوه به، أما حب المشركين لآلهتهم؛ فهو موزَّعٌ بينها، ولا شك أنَّ الحبَّ إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى.

[معنى يحبونهم كحب الله]

وقيل: المعنى: أنَّهم يحبُّون آلهتهم كحب المؤمنين لله، والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من الكفار لأندادهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا... ﴾ الآية؛ فقد تقدم الكلام في معنى الحمد[1]، وأنَّه الثناء باللسان على النعمة وغيرها، وقلنا: إنَّ إثبات الحمد له سبحانه متضمِّنٌ لإثبات جميع الكمالات التي لا يستحقُّ الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها.

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافي كمال الحمد من الولد والشريك والولي من الذلِّ، أي: من فقر وحاجة، فهو سبحانه لا يوالي أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه.

ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا؛ أي: يعظمه تعظيمًا ويُنَزِّهَهُ عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين.

وأما قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إلخ؛ فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء؛

---

(١) انظر: (ص: ٧٨).

كما تقدم.

ولا شكَّ أنَّ جميع الأشياء في السموات وفي الأرض تسبِّح بحمد ربها، وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزَّة والحكمة والتدبير والرحمة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

[تسبيح الجمادات]

وقد اختُلف في تسبيح الجمادات التي لا تنطق؛ هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال؟ وعندي أنَّ الثاني أرجح؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال؛ لكان ذلك معلومًا، فلا يصحُّ الاستدراك.

وقد قالَ تعالى مخبرًا عن داودَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص:١٨-١٩].

[معنى لتبارك]

وأمَّا قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ إلخ؛ فقد قلنا: إنَّ معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة؛ وهي دوام الخير وكثرته، ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص، فإنَّ المراد تجدُّد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته، فإنَّها تتجدَّد في ذاته على وفق حكمته، فالخلوُّ عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبرُ نقصًا(١).

---

(١) قال الشيخ صالح الفوزان في شرحه لـ «الواسطية» (ص: ٧٢): «تبارك: فعل ماضٍ مأخوذ من البركة، وهي النماء والزيادة المستقرة الثابتة الدائمة، وهذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي». اهـ

وقد فسَّر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغيُّر، ومنه سمِّيت البِرْكَة؛ لثبوت مائها. وهو بعيد.

والمراد بـ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ القرآن، سمي بذلك لقوَّة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال.

والتعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ بالتشديد؛ لإفادة التدرُّج في النزول، وأنَّه لم ينزل جملة واحدة.

والمراد بـ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف - كما سبق.

و﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾؛ جمع عالم، وهو جمع لما يعقل، واختُلِف في المراد به، فقيل: الإنس. وقيل: الإنس والجن. وهو الصحيح؛ فقد ثبت أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إلى الجن أيضًا، وأنَّه يجتمع بهم، ويقرأ عليهم القرآن، وأنَّ منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

والنَّذير والمنذر هو من يُعْلِم بالشيء مع التخويف، وضده البشير أو المبشِّر، وهوَ من يخبرك بما يسرُّك.

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلخ؛ تضمَّنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يُراد بها نفي ما لا يليق بالله عزَّ وجلَّ عنه، فقد

نزَّه سبحانه نفسه فيها عن اتِّخاذ الولد وعن وجود إله خالقٍ معه، وعمَّا وصفه به المفترون الكذَّابون؛ كما نهى عن ضرب الأمثال له، والإشراك به بلا حجة ولا برهان، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل.

فهذه الآية تضمَّنت إثبات توحيد الإلهية، وإثبات توحيد الرُّبوبية، فإنَّ الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة، فقال: ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذ لو كان معه آلهةٌ كما يقول هؤلاء المشركون؛ ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

[دليل التمانع]

وتوضيح هذا الدليل أن يقال: إذا تعدَّدت الآلهة؛ فلا بدَّ أن يكون لكل منهم خلق وفعل، ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم؛ فإنَّ الاختلاف بينهم ضروريٌّ، كما أنَّ التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد، والعاجز لا يصلح إلهًا، فلا بد أن يستقلَّ كلٌّ منهم بخلقه وفعله، وحينئذٍ؛ فإمَّا أن يكونوا متكافئين في القدرة، لا يستطيع كلٌّ منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم، فيذهب كلٌّ منهم بما خلق، ويختص بملكه؛ كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين، وإمَّا أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين، فيغلبهم، ويقهرهم، وينفرد دونهم بالخلق والتدبير، فلا بد إذًا مع تعدُّد الآلهة من أحد هذين الأمرين: إمَّا ذهاب كل بما خلق، أو علو بعضهم على بعض.

وذهاب كلٍّ بما خلق غير واقع؛ لأنَّه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم، مع أنَّ المشاهدة تثبت أنَّ العالم كله كجسم واحد مترابط

الأجزاء، متَّسق الأنحاء، فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإله واحد.

وعلو بعضهم على بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ فهو نهيٌ لهم أن يشبِّهوه بشيء من خلقه؛ فإنَّه سبحانه له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق.

وقد قدَّمنا أنَّه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره؛ كقياس التمثيل وقياس الشمول.

[قياس الأولى] وإنَّما يستعمل في ذلك قياس الأولى الذي مضمونه أنَّ كلَّ كمالٍ وجوديٍّ غيرِ مستلزمٍ للعدم ولا للنقص بوجهٍ من الوجوه اتَّصف به المخلوق فالخالق أولى أن يتَّصف به؛ لأنَّه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنَّه لو لم يتَّصف بذلك الكمال - مع إمكان أن يُتَّصف به - لكان في الممكنات من هو أكمل منه، وهو محالٌ، وكذلك كل نقصٍ يتنزَّه عنه المخلوق، فالخالق أولى بالتنزُّه عنه.

وأمَّا قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ إلخ؛ فـ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصرٍ تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة، فيفهم أنَّ مَن عداها من الطَّيِّبات فهو مباحٌ لا حرج فيه؛ كما أفادته الآية التي قبلها.

و﴿الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة؛ وهي الفعلة المتناهية في القبح، وخصَّها بعضهم بما تضمَّن شهوة ولذة من المعاصي؛ كالزنا، واللواط، ونحوهما من الفواحش الظاهرة، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة.

وأمَّا ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾؛ فمنهم مَن فسره بمطلق المعصية، فيكون المراد منه ما دون الفاحشة، ومنهم مَن خصَّه بالخمر؛ فإنَّها جِماع الإثم.

وأمَّا ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ فهو التسلُّط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة.

وقوله: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، وحرَّم أن تعبدوا مع الله غيره، وتتقرَّبوا إليه بأي نوع من أنواع العبادات والقربات؛ كالدعاء، والنذر،والذبح، والخوف، والرجاء، ونحو ذلك مما يجب أن يُخْلِص فيه العبدُ قلبَه ويُسْلِمَ وجهَه لله، وحرَّم أن تتَّخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرِّعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله في عباداتهم ومعاملاتهم؛ كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان؛ حيث اتَّخذوهم أربابًا من دون الله في التشريع، فأحلُّوا ما حرَّم الله، وحرَّمُوا ما أحلَّ الله، فاتَّبعوهم في ذلك.

وقوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ قيدٌ لبيان الواقع؛ فإنَّ كلَّ ما عُبِدَ أو اتُّبع أو أُطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان.

[حرمة القول على الله بغير علم]

وأما القول على الله بلا علم؛ فهو بابٌ واسعٌ جدًّا يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة؛ كنفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه، أو الإلحاد في آياته بالتحريف والتأويل.

قال العلَّامة ابن القيم في كتابه ((إعلام الموقعين))(١): ((وقد حرَّم الله

(١) (٣٨/١).

القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرَّمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ...﴾ الآية، فرتَّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش، وثنَّى بما هو أشد تحريمًا منه، وهو الإثم والظلم، ثمَّ ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما، وهو الشرك به سبحانه، ثمَّ ربَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمُّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه)).

(وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فِي [سَبْعَةِ] [١] مَوَاضِعَ:

[فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ؛ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

---

(١) في الأصل: وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في (ستة مواضع).

وهذا هو الصواب لأن الآية التي تكررت في ستة مواضع في القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.